مجلة الدّراسات الإسلاميّة
ISSN: 2253-0894 / EISSN: 2661-7390
المجلد 09 ـــــــــــــــــــــ العدد 01
جمادى الثاني 1442هـ ـــــــــــ جانفي 2021
♦ـــــ♦ـــــ♦ ص ص: 23 - 46 ♦ـــــ♦ـــــ♦

العلاقات الإنسانية في السنة النبوية الشريفة

HUMAN RELATIONSHIPS IN THE NOBLE PROPHET'S SUNNAH

زبيدة الطيب[1]	Zoubida Taeib
كلية أصول الدين - جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة - الجزائر	Faculty of Oussoul eddine - University Emir Abdelkader of Islamic Sciences - Constantine - Algeria
مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان	Laboratary of doctrinal studies and comparision of religions
zoubida.taeib@gmail.com	

تاريخ الارسال:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2020/05/19	2020/05/27	2021/01/31

الملخص:

تدور إشكالية المقال حول دور قيم المساواة والكرامة الإنسانية؛ التي تتجلى في السنة النبوية الشريفة في إقامة وبناء مجتمع إنساني، في مقابل ثقافة الفوقية وسلوك الاستعلاء؛ التي يمارسها الغرب منذ بدء نهضته مرورا بعهده الكولونيالي إلى حالة الهيمنة وإدارة شؤون العالم اليوم، والتي أحالت العلاقات الإنسانية مادة وآلات للحروب والصراعات المادية؛ ما يبرز تأثير تراجع المسلمين وفشلهم في تمثل قيم العلاقات الإنسانية فيما بينهم وعجزهم عن نشرها في العالم.

الكلمات المفتاحية: السنة النبوية، العلاقات الإنسانية، الفوقية، الاستعلاء، القيم الإنسانية، المساواة.

1) المؤلف المُرسل: زبيدة الطيب - الإيميل: zoubida.taeib@gmail.com

المنارة للاستشارات
ww

Abstract:

The article highlights the role of the values of equality and human dignity. Which is reflected in the Noble Prophetic Sunnah, may God's prayers and peace be upon him, in establishing and building a human society, in exchange for a culture of superiority and superior behavior; Practiced by the West from the start of its rise through its colonial era to the state of domination today, which transformed human relationships into instrument of wars and material conflicts; This highlights the impact of the Muslims 'retreat and their failure to represent the humanistic values of Islam.

Key Words: Noble Prophetic Sunnah, Human relations, Superiority, Human values, Equality.

مقدمة:

في ظل الحروب والنزاعات والمجاعات والفقر وحالات اللااستقرار، وانعدام الأمن التي تعيشها الإنسانية اليوم؛ يتطلع العالم إلى بناء مجتمع إنساني يسوده السلم والاستقرار والتعايش بين جميع المكونات والعقائد والأجناس.

وقد أثبتت (الحضارة) الغربية أنها فاشلة وعاجزة عن تمثل قيم السلم والمحبة؛ التي تعد أداة لصناعة الاستقرار والسلم في العالم، بل على العكس من ذلك هي تعمل على تقويضها وهدمها وإشاعة الحروب وثقافة الكراهية عبر ممارسة الفوقية الحضارية.

ومن ثمة كان لزاما البحث في ثقافات وحضارات أخرى؛ تسهم في تهيئة الظروف من أجل صناعة مجتمع إنساني ينعم بالمحبة والسلام والتعاون بين جميع مكوناته، من غير فوقية تمنع التعايش والتعاون وتعمق الهوة بين تلك المكونات.

والناظر في الإرث الحضاري الإسلامي؛ يمكنه العثور على ما يؤهل المسلمين لذلك. ويتمثل ذلك، خاصة، في تعاليم وتطبيقات النبي صلى الله عليه وسلم. وهنا يجدر طرح السؤال: **ما الذي يمكن أن تقدمه تجربة النبي صلى الله عليه وسلم للإنسانية بخصوص هذا الموضوع؟ أي كيف أسس النبي صلى الله عليه وسلم لعلاقات إنسانية أسهمت في استقرار الإنسان وأمنه ردحا من الزمن؟** تلك هي الإشكالية التي أحاول معالجتها في هذا المقال من خلال جملة من العناصر.

1/ **الغرب والفوقية الحضارية المزيفة**:

لقد أثبتت (الحضارة) الغربية أنها فاشلة وعاجزة عن تمثل الكثير من القيم الإنسانية التي تؤهلها لصناعة حالة الأمن والتعايش التي يحتاجها المجتمع البشري؛ بل على العكس

المنارة للاستشارات

من ذلك هي تعمل على تقويضها وهدمها وإشاعة الحروب ونشر ثقافة الكراهية عبر ممارسة الفوقية الحضارية التي ظلت تلازمها منذ النهضة مرورا بالأنوار، وما تلاها من تقدم في المجال الصناعي والحربي والتكنولوجي. والتي تجسدت في الحملات الاستعمارية المدعومة بالتبريرات "العقلانية والعلمية"؛ التي تروج لتفوق العنصر الأوروبي والغربي عموما. وهو ما أدى إلى "... اختزال شديد للعرق الإنساني في هوية أوروبية تقوم على رفض كل هوية تشوه صورة نريدها لنا نحن أهل أوروبا". كما تقول الباحثة الفرنسية صوفي بسيس في كتابها الذي يحمل عنوان "الغرب والآخرون: تاريخ سيطرة [1]

وقد تطور الموضوع في الوعي الغربي حتى بات الاستعلاء في فكره وممارسته جزءاً من استراتيجيته للحفاظ على هويته؛ بمعنى أن التنازل عن استعلائه يعني، بالنسبة إليه، ضياع للهوية وتفريط في استحقاقها. تقول بسيس: "...إن الخوف من التخلي عن موقع الهيمنة، وهو الموقع الذي أسس طبيعة العلاقة مع العالم، أصبح لصيقا بالخوف على الهوية من الاندثار"[2] فما المراد بالفوقية الحضارية؟

2/ **مفهوم الفوقية**:

من حيث اللغة؛ لفظة الفوقية هي ما يقابل الدونية؛ وهي تحمل معنى: العظمة. جاء في لسان العرب: قوله تعالى: ﴿**فما فوقها**﴾ أعظم منها، وفاق الشيء علاه وغلبه. ويذكر الفعل مقرونا بالشرف والفضل.[3] وهي بذلك ذات مضمون إيجابي يشير إلى صفة يحبها الإنسان؛ إذ لا ضير فإن غالبية الناس تحب أن تنال الفضل والشرف سواء كان ذلك عن طريق النسب أو المال أو الجاه أو العلم أو الأخلاق وما إلى ذلك.

غير أنها تتحول إلى معنى أو مضمون سلبي؛ عندما يتم تطعيمها وتغذيتها بالعامل الأيديولوجي؛ حيث تصير إلى معنى الشعور بالتميز والتفوق بامتلاك تلك العناصر أو بعضها. وهي العناصر التي تغذي نفسية الإنسان أو ذهنيته بالأفضلية؛ ما يقود إلى صراع مع باقي المكونات التي لا حظ لها في امتلاكها (العناصر)؛ ينتج عنه، بالضرورة، خلق تراتيبية تحمل تصورات هذا المستعلي أو الفوقي، وتحول، من ثمة، بينه وبين إقامة حالة ينظر من خلالها إلى الآخر نظرة ندية محترمة. وهذا ما يحصل مع الغرب اليوم؛ حيث باتت الفوقية في الغرب تعني التمركز حول الذات، والنظر إلى الغير بدونية انطلاقا من امتلاك ممكنات القوة المادية

المنارة للاستشارات
ww

خاصة؛ والمتمثلة في القوة الاقتصادية والعسكرية والعلمية والإعلامية والتكنولوجية. وهو ما يولد احتقارا للآخر الذي لا يمتلك تلك الممكنات وعدم الاعتراف به، ومن ثمة منح نفسه (أي الغرب) حقانية السيطرة على العالم وإملاء إرادته على باقي الشعوب والمجتمعات.

ونظيرها تعبير أو مصطلح الاستعلاء؛ الذي يعرفه وليام جراهام سمنر[4]، عالِم الاجتماع الأمريكي بأنه النظر إلى جماعة مَّا على أنها مركز كل شيء، وجميع الآخرين يرتبون بعدهم."[5] وجاء في تعريفه أيضا بأنه "... الاعتقاد بأن ديانة معينة، أو عرقا معينا، أو جنسا معينا، أو ثقافة معينة أسمى من غيرها."[6] وقد ارتبط أساسا بالمركزية الأوروبية، والتي جعلت من أوروبا منبع العقلانية ونبراس الحقيقة ومركز التنوير، وذلك عبر ثلاث لحظات تاريخية كان آخرها الكولونيالية البشعة التي شكلت مرحلة فارقة من مراحل الصراع مع الآخر، حيث عملت على استعماره واستعباده ومحو هويته الحضارية.[7] ثم عممت لتصير فكرة غربية بعد لحاق الولايات المتحدة حتى باتت هذه النزعة اليوم تمثل "... تيارا متجذرا في السياسة الأمريكية يدعو إلى التدخل المستمر في الشؤون الدولية على قاعدة هذا المتبنى الفكري."[8]

إن هذه النظرة الغربية الاستعلائية هي التي تتحكم اليوم في علاقة الغرب مع غيره، وهي التي تغذيه بالأفكار والفلسفات وتوجه ممارساته وترسم أهدافه وغاياته. وفي ضوء هذا المعطى الإقصائي تبرز لنا صعوبة بناء وضع إنساني تحظى فيه جميع المكونات البشرية بالأمن والاحترام. لكن هل ذلك يعني أن الغرب يشكل استثناءا أو لحظة تاريخية فارقة؟

إن القارئ للقرآن الكريم يلحظ أن الله تعالى حكى عن نماذج مارست الفوقية والاستعلاء، وأن تلك الممارسة قد حالت بينها وبين قبول دعوات الأنبياء، وفوتت على الكثير من المجتمعات والأفراد فرصة الاستمتاع باللحظة الإيمانية والعبودية لله تعالى، وهو ما نعثر عليه في قصص الأنبياء والصالحين في القرآن الكريم.

ومن تلك النماذج البشرية التي سماها الله عزّوجلّ الملأ من القوم؛ نجد فرعون وهامان وأقوام الأنبياء نوح وإبراهيم وصالح وثمود والنبي صلى الله عليهم وسلم جميعا؛ فجميع هؤلاء تصدوا لدعوات الأنبياء ورفضوها بعنوان مراتهم القائمة على امتلاك المال والسلطة

المنارة للاستشارات

وغيرها... ما يعني أن الغرب، اليوم، ليس استثناء بقدر ما يعني أن التفكير والسلوك الفوقي لصيق بالفكر البشري لحظة تعريه من الجانب الإنساني والقيمي، وهذا الفكر والسلوك هو أحدُّ معاول هدم الاجتماع الإنساني.

من هنا بات من الضروري البحث عن بديل حضاري وجدي يمنح الإنسانية الأمان، ويوفر لها المادة الأولية لصناعة أو بناء مجتمع إنساني. وتمثل تعاليم وتطبيقات النبي صلى الله عليه وسلم في السياق الإسلامي ذلك البديل؛ الذي يتجاوز الأعراق والأوضاع وسائر الإثنيات ويتوجه نحو الإنسان.

والقارئ للسنة النبوية الشريفة؛ يلحظ أنها كانت ثورة على الثقافة والممارسات الفوقية، التي سادت العالم والمجتمعات بعنوان العرق واللون والجاه والمال وغيرها؛ فكانت بداية الثورة هدما لتلك الثقافة، ثم بناءا لثقافة بديلة نعثر عليها في تعاليم وتطبيقات الرسول صلى الله عليه وسلم.

أولا: مستوى الهدم:

ونعني بها طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم في معالجة الرواسب التي تراكمت في اللاشعور الجمعي للمجتمع العربي الموروث، والذي تظافر في تكوينه وتشكله عوامل ثقافة الآباء والأجداد والقبيلة والعشيرة وغيرها.... كما نعني بها، في هذا المقام، محاولة تلمس طريقته في محاربة الثقافة التي تغذي الشعور بالاستعلاء والفوقية؛ ذلك أن الاهتمام بهدم الثقافات البالية هو، في الواقع، من صميم الأعمال الريادية. وهو ما أدركه النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك وجدناه يهتم بإزاحة الكثير من بقايا الجاهلية؛ التي يعرف أنها تشكل خطرا على بناء المجتمع الإسلامي الوليد؛ باعتباره النواة التي يعول عليها في بناء المجتمع الإنساني. ومن ذلك الثقافة الفوقية ومظاهرها التي كثرت في المجتمع العربي قبل مجيء الإسلام[9] والتي تتغذى من العنصرية والتعصب للعرق أو اللون أو العشيرة أو غيرها...؛ فعمل على تجفيفها ومن ثمة هدم صورها وأشكالها ومظاهرها عبر:

ـ رفض الاعتداد بالجنس واعتباره أحد مظاهر الجاهلية:

أرسل الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم من العرب وبلسان عربي، وحمّل العرب مهمة الدعوة إلى الله تعالى. غير أن ذلك لا يعني تفضيل الجنس العربي على باقي الأجناس أو

المنارة للاستشارات

اتخاذ العروبة مدعاة للاستعلاء والفوقية. يقول الشيخ محمد الغزالي: "... ولا أعني بالعرب دما مخصوصا، بل أعني كل متحدث بالعربية منتسب إلى أمتها معتنق لرسالتها أو مسالم لهذه الرسالة غير مشاق لأهلها ولا متول لأعدائها. فمن أعوزته هذه المواهب، ولو ولد في بطحاء مكة، فليس بأهل للعروبة ومن استجمعها من الزنوج فهو عربي أصيل لا يعيبه لون ولا يؤخره جنس."[10] ويزيد: "... ليست العروبة إذن تعصبا جنسيا لدم من الدماء أو لون من الألوان."[11] عن المغرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر بالربذة وعليه برد وعلى غلامه مثله فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة. فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية.)[12] وروى الحافظ ابن عساكر قال: " جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي، فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) فما بال هذا وهذا (مشيرا إلى غير العرب من الجالسين) فقام إليه معاذ بن جبل رضي الله عنه فأخذ بتلابيبه ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقاله. فقام عليه الصلاة والسلام مغضبا يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخطبهم قائلا: "يا أيها الناس إن الرب واحد وإن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي."[13] ومن ثمة رفض تقديم الأعراق والأجناس على حساب الإنسان وقيمة الإنسانية في الحكم مثلا وهو ما يؤشر إلى أن ذلك ينسحب على كل المجالات الحياتية والمعاملات اليومية؛ إذ الحكم وسياسة أمور الناس، بما يحمله من مسؤوليات، يعد من أجل وأعظم الأدوار الحياتية... (ولو استعمل عليكم عبد حبشي.)[14]

ـ رفض الاعتداد باللون:

لأنه يمثل أحد أبرز مداخل التفرقة والاستعلاء العنصريين؛ ففي رواية أن أحد الصحابة عيّر آخرا بأمه فقال: يا ابن السوداء. فغضب عليه الصلاة والسلام وأنكر ذلك بقوله: أعيرته بأمه؟؟؟[15] ورفض أن يكون اللون عنصرا تفاضليا على حساب التقوى والعمل الصالح فقال: " إن ربكم واحد وإن أباكم واحد فلا فضل لعربي على أعجمي ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى."[16] وشدد على اعتبار الكمالات النفسية التي يتميز بها الناس بعضهم عن

المنارة للاستشارات

بعض فقال: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم."[17] وأرسل بذلك رسالة إلى الإنسانية جمعاء مفادها أن اختلاف الألوان هي آية من آيات الله تعالى، وليست دليلا على تفوق عرق أو جنس أو قوم أو عشيرة على الأخرى.

ـ رفض الاستعلاء بالانتماء إلى الوطن أو إلى العشيرة:

الإحساس بالانتماء إلى الوطن أو العشيرة هو شعور فطري أوّلا. وثانياً هو مفهوم يتجاوز المفهوم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ليذهب إلى المعنى الثقافي؛ أي أن الوطن في الإنسان يعني العواطف والمشاعر والأحاسيس؛ مثل الروابط المشتركة بين الأفراد والاعتزاز والافتخار بها والتضحية من أجلها. يقول الفخر الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم**﴾ [النساء/ 66] مبينا منزلة حب الأوطان في قلب الإنسان"... جعل الله مفارقة الأوطان معادلة لقتل النفس؛ فكأن الله تعالى يقول: ولو أني كتبت عليهم أعظم مشقتين في الوجود لم يمتثلوا، وأعظم مشقتين هما قتل النفس، وفراق الوطن."[18]

غير أن حب الإنسان لوطنه لا ينبغي أن يكون مدعاة إلى الاستعلاء والفوقية؛ أي حينما يُتَّخذ الانتماء إلى وطن مَّا أو عشيرة بعينها مطية للاستعلاء على غير المنتمين إلى ذلك الوطن أو تلك العشيرة أو أولئك القوم ضد قيم الحرية والكرامة الإنسانية؛ فيدفعه ذلك إلى الظلم أو الاعتداء أو الاحتقار. وهو ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم واعتبره عصبية وإرثا جاهليا مقيتا فقال: (ليس منا من دعا إلى عصبية)[19] (العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم.)[20] وهذا يعني أنه "... إذا غلب عليه حبه (حب الوطن) وانقلب تعصباً، يعادى من أجله المسلم الناس فإن الشرع يرفضه."[21] أي إذا كان حبك لوطنك يعني احتقارك لباقي الأوطان أو الاستعلاء على باقي الأقوام والعشائر فهو مرفوض شرعا؛ لأن ذلك مما يقوض مساعي البناء الإنساني.

ـ رفض الاستعلاء بالمال والولد:

فأما المال فإنه عصب الحياة؛ وقد حبب الله تعالى المال إلى قلب الإنسان فقال: ﴿ **وتحبون المال حبا جما**﴾ [الفجر/ 20] وقدمه على الولد فقال: ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾ [الكهف/46].

وفيما يؤكد القرآن الكريم على مكانة المال في حياة الإنسان، ودوره في بناء المجتمع الإسلامي والإنساني؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم، يحذر من نقطة قد يتحول فيها المال

المنارة للاستشارات
ww

ليصبح عنصرا مقوضا للعلاقات بين الناس ومعكرا لأجواء الحب بينهم، ومن ثمة عائقا يحول دون بناء المجتمع الإنساني، وربما مخربا له؛ وذلك حينما يكون مدعاة للاستعلاء والزهو، والاستعلاء والظلم؛ والظلم مؤذن بخراب العمران؛ قال عليه الصلاة والسلام: "نعم المال الصالح للعبد الصالح."[22]

وأما الولد؛ فإن الإسلام حث عليه، وحرص على تكثير سواد الأمة تكثيرا إيجابيا ونوعيا يكون إضافة للأمة وللأوطان، ما يعني أن الإسلام لا يقصد التكاثر من أجل التكاثر أو التكاثر بغرض التباهي ومن ثمة الاستعلاء. ولذلك نجد تقريع الله عزّ وجلّ لمن اتخذ من التكاثر عاملا للتباهي والاستعلاء فقال تعالى: ﴿**ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر**﴾ [التكاثر/02]. جاء في تفسير الطبري عن قتادة: " ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر." قال: "... كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم"[23]وعن قتادة أيضا قال: " قالوا نحن أكثر من بني فلان وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالا."[24] ثم أردف قائلا: وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم كلام يدل على أن معناه التكاثر بالمال.[25]

وهكذا؛ فإنه لا الجنس ولا اللون ولا المال ولا والولد ولا غيرها... من عناصر القوة ينبغي أن يكون عناصر للاستعلاء وممارسة الفوقية في الإسلام، وانطلاقا من منهج النبي صلى الله عليه وسلم في التربية والدعوة والقائمة على ما رواه الصحابة وهو قول أحدهم: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرغنا ثم يملؤنا." يبرز للباحث مستوى البناء مصاحبا لمستوى الهدم.

ثانيا: مستوى البناء:

والمراد به التأسيس لثقافة الندية والمساواة بدل ثقافة وسلوك الاستعلاء والفوقية؛ فإذا كان لثقافة وسلوك الفوقية والاستعلاء أسس تتوكأ عليها؛ فإن لثقافة الاحترام في الإسلام مصادرها وأطرها التي تتغذى منها وتتحرك فيها، والتي تتمثل في:

ـ الكرامة الإنسانية:

الندية في التعامل والمساواة بين الناس تنطلق من احترام الكرامة الإنسانية؛ ذلك أن الاستعلاء والفوقية إنما يقومان على نقيض الاحترام، وينطلقان من ما يخالف الكرامة

المنارة للاستشارات
ww

الإنسانية؛ أي الاحتقار. ولذلك فإنه ما لم يكن فينا الاحترام للكرامة الإنسانية ثقافة وسلوكا، بل وعقيدة فإنه لا مجال للحديث عن تعامل محترم. وهو ضربان:

✓ **احترام الإنسان في ذاته**:

أي من حيث كونه إنسانا تسكنه روح الله تعالى، وهذا يتجلى في مواضع عديدة في السنة النبوية الشريفة؛ مثل الحديث الذي ورد في وقوفه صلى الله عليه وسلم احتراما وتقديسا لجنازة هي ليهودي. وعندما أخبر بأنه جنازة يهودي قال: " أليست نفس"[26]

✓ **احترام ثقافة الإنسان وآرائه وعقائده**:

والاحترام هنا لا يعني الاقتناع؛ لأن المطلوب أن نقتنع بأصل الاحترام لا مضمون الرأي أو العقيدة أو الثقافة التي يعتقدها المخالف، وأن نقبل ثقافته وعقيدته لا يعني أن نقتنع بها. وهو تحصيل حاصل للنقطة السابقة؛ ذلك أن عدم احترام معتقدات الإنسان وآرائه وثقافته، والتقليل من شأنها يعني فشل العلاقات والتواصل والتعايش. ومن ثمة فشل البناء الإنساني؛ فاحترام ما يستحق الاحترام في الإنسان هو بمنزلة احترام الإنسان ذاته. ولذلك جاء حرص النبي صلى الله عليه وسلم على ضرورة احترام عقائد وآراء المخالفين، وسلوك اللين في التعامل معهم وهو من قال فيه الله تعالى: ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ [آل عمران/ 159]. ومما جاء في هذا الصدد بإزاء هذا الموضوع ما روي أنه صلى الله عليه وسلم كثيرا ما كان ينزل عن رأيه إلى رأي أصحابه إذا لاح له أنه أصوب؛ وخصوصا في أمور المعيشة وشئون السياسة والتعليم. وجاء أنه عليه الصلاة والسلام قال: " إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، أنتم أعلم بأمر دنياك [27]

وعلى ذلك المنوال ربَّى أصحابه؛ فكانوا لا يضيقون ذرعا بالآراء المخالفة، ولو كان ظاهرها يوحي بقدح شخصي، فقد روي أن أحد الرعية قال لعمر بن الخطاب: اتق الله يا بن الخطاب! فأغضب هذا بعض من حوله وحاول أن ينتهر هذا القائل ولكن عمر قال: دعه فلا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نسمعها. ويضاف إلى ذلك المرأة التي عارضت عمر على منبره فرجع عن قوله قائلا: أصابت المرأة وأخطأ عمر.[28]

المنارة للاستشارات
ww

ـ خاتمية النبوة والرسالة: ونعني بها:

خاتمية النبوة المحمدية:

فبخصوص خاتمية نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم جاء قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [الأحزاب/40].

خاتمية الرسالة الإسلامية:

وأما بخصوص خاتمية الرسالة الإسلامية فقد جاء قوله تعالى: ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت/42]. ووجه الاستدلال أن نفي البطلان عن القرآن الكريم جاء بشكل مطلق. وهو ما يدل على صلاحية ما جاء به القرآن من إخبارات وأحكام وتصورات إلى يوم القيامة.[29] وكذلك قوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾ [الأنعام/ 19] ووجه الاستدلال في الآية أنّ الإنذار بالقرآن الذي أُمِرَ به الرسول صلى اله عليه وسلم متعلّق بكل من بلغه هذا القرآن؛ ما يفيد معنى ديمومة مضمون القرآن الكريم إلى يوم القيامة.[30]

وعليه؛ فإن خاتمية النبوة تعني أن النبي صلى الله عليه وسلم هو من سيقود المجتمع الإنساني، وأن خاتمية الرسالة تعني صلاحها وديمومتها. ومن ثمة كمالها؛ خاصة وأن الختم في أحد معانيه اللغوية ينبئ عن إتمام الشيء.[31] ما يعني أن لا حاجة للإنسانية في قادم أيامها إلى رسالة جديدة ولا إلى نبي جديد، وأن كل ما تضمنته سيفي بمستقبل البشرية.

فالخاتمية، بما تحمله وتتضمنه من معاني الصلاح والديمومة والكمال؛ سواء تعلقت تلك المعاني بالرسالة بوصفها أحكاما وتعاليم اعتقادية وتشريعية وأخلاقية موجهة إلى الإنسان، أو تعلقت بالنبوة بوصفها تطبيقات عملية للرسالة، هي في الواقع إرث إنساني يمثل قاعدة لاستلهام عناصر ووصفات البناء الإنساني والمساواة والاحترام.

ـ عالمية الرسالة:

عالمية الرسالة الإسلامية هي تحصيل حاصل لخاتميتها. وهي؛ تعني أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث برسالة إلى البشرية جميعا؛ فلم يخص بها الله تعالى قوما أو جنسا أو

المنارة للاستشارات

عرقا أو طائفة أو جيلا أو مرحلة أو زمانا. قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ [الأنبياء/107] والعالمية من ناحية أخرى؛ تعني أن الرسالة الإسلامية ما جاءت لهدم ما سبقها من إنجازات وأعمال الأنبياء السابقين بقدر ما كانت استكمالا لها. وبذلك كانت تلك الرسالة بناءا عالميا وإنسانيا بكل ما تحمله الكلمة من معنى. قال عليه الصلاة والسلام: " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين."[32]؛ فـ"... النبوّة الخاتمة جاءت بالرسالة الوريثة لكلّ ما يعبّر عنه تاريخ النبوّات من رسالات، والمشتملة على كلّ ما في تلك النبوّات والرسالات من قيم ثابتة "[33]

وهكذا لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم رجلا إقليميا يسعى إلى نصرة قومه أو عشيرته، أو زعيما وطنيا همه الانتصار للوطن على حساب باقي الأوطان والاستعلاء عليها. وإنما كان كما قال عنه الله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾.

وبناء على معاني العالمية التي أوردنا وجدناه صلى الله عليه وسلم يتوجه إلى جميع الناس بلغة واحدة، هي لغة المساواة وبمنطق واحد هو منطق الندية؛ فكونه عليه الصلاة والسلام نبي الجميع ورسالته هي رسالة الجميع فإن هذا يعني أن الجميع، بالنسبة إليه، في مستوى واحد وعلى درجة واحدة من الاحترام والقبول. وأن الفارق بين البشر عنده هو التقوى؛ التي تنعكس على العمل فتحيله صالحا للبشرية ومليئا بالحب والخير للإنسانية.

لقد بدا لي، من خلال ما سبق، أن حرص النبي صلى الله عليه وسلم على بناء سلوك ندي يكون نبراسا يستنير به العالم في قادم أيامه، ومن ثمة صياغة أنموذج في البناء الإنساني يكون قدوة ومثلا أعلى؛ هو في حقيقته مسؤولية تحَمَّلها ودافع عنها وعاش ومات من أجلها؛ من منطلق كونه رسولا خاتما ومكلف برسالة عالمية محورها ووظيفتها الإنسان.

وقد مثلت القدوة الآلية الرئيسة؛ التي اعتمدها النبي صلى الله عليه وسلم في إحالة وتحويل مضامين عالمية الرسالة وخاتمية الرسول واحترام الإنسان واقعا يعيش فيه الإنسان قيم الاحترام والندية والمساواة؛ فلم تبق الخاتمية والعالمية واحترام الإنسان مجرد شعارات ترفع، بل إنها وجدت طريقها نحو التطبيق والواقع عبر آلية القدوة. وربما كان ذلك

المنارة للاستشارات
ww

هو الفارق الجوهري والرئيسي بين الشعارات الجميلة التي يحملها الغرب اليوم؛ بخصوص احترام الإنسان و(عالمية) ثقافته وفكره وتعاليمه أو عولمتها وصلاحيتها. وبين ما حمله النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلقد أحال النبي صلى الله عليه وسلم تلك التعاليم تطبيقات عاشها الناس ونقلها الرواة وتواتروا في نقلها، بل وصارت اليوم مطلب الكثير من العقلاء ممن قرأها واطلع عليها من مفكري الغرب وخبرائه. ويظهر ذلك من خلال جملة من التعاليم والأخلاق الإسلامية التي تمثل، في الواقع، الرافعة الحقيقية لثقافة وسلوك الندية والاحترام في مقابل الاستعلاء والفوقية. وهي:

ـ العبودية للخالق:

والأصل فيها قوله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل/ 36] وهي، كما ينقل يوسف القرضاوي، عن ابن تيمية أن العبادة أصل معناها الذل، يقال طريق معبد إذا كان مذللا، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له. ثم يعلق على ذلك قائلا: " يبرز إلى جوار المعنى الأصلي في اللغة وهو غاية الطاعة والخضوع عنصرا جديدا له أهمية كبرى في الإسلام وفي كل الأديان [...] وذلك هو عنصر الحب."[34]

والعبادة بهذا المعنى تكشف عن عناصر وإشارات عديدة منها: أن الامتثال والاستسلام للمعبود الخالق عزّ وجلّ هو المكون الأساس للعبادة، وأن العبادة التي تقوم على عنصر الاستسلام وحده هي عبادة ميكانيكية لا تنتج شيئا؛ لذلك استصحب المعنى عنصر الحب؛ حتى تنتج العبادة وتفرز مقتضيات يلمسها العابد في واقعه وحياته اليومية ويعيشها. كما تكشف عن أن أبرز ما تنتجه عبادة الله تعالى هو التواضع؛ ذلك أن من يرفض التعبد وعبادة الله تعالى هو يرفضها استعلاء؛ وهكذا كان حال أغلب الذين رفضوا عبادة الله تعالى استكبارا واستعلاء من الذين حكى عنهم القرآن الكريم مثل فرعون وهامان وسائر من سماهم "الملأ من القوم" من أقوام الأنبياء والمرسلين ما حملهم على إنكار الله تعالى ورفض عبادته إلا الاستعلاء.

إن ذلك يعني أن الاستعلاء عن عبادة الله تعالى والتنكر لجميله ونعمه، هو في الواقع، مدعاة وسبيل إلى الاستعلاء على الخلق. وهذا هو ديدن المستكبرين ممن شهد ويشهد عنهم

المنارة للاستشارات

تاريخ البشرية وواقعها؛ ذلك أنه من أضاع الصلة بالله تعالى فهو لما سواها أضيع، وأن الفوقية والاستعلاء هو ثقافة وسلوك مرتبط بانحرافات في التصورات العقدية. وإن أولى خطوات الاستعلاء هي الاستعلاء عن عبادة الله، وهي، والحال هكذا، تعد المولد لباقي أشكال وأنواع الاستعلاء، وعلى النقيض من ذلك فإن العبادة تذكره دائما بأن الناس من حوله إخوة له.

ـ التواضع للخلق:

هو نقيض الاستعلاء، وهو في الأصل خلق وقيمة إنسانية لا تختص بدين أو بأمة دون سائر الأمم. وفي الإسلام نجده قد خُص بمساحة كبيرة من الاهتمام والعناية؛ باعتباره خلقا يصنع فضاء واسعا للقاء الإنسان بالإنسان. فإذا كان الاستعلاء يصنع التباعد والنفور والتهميش والإقصاء على خلفيات عنصرية دينية أو عرقية أو جنسية أو غيرها... فإن التواضع يصنع التقارب واللقاء والتواصل والاحترام. يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الموضوع: "كلكم لآدم وآدم من تراب."[35] ويروى أن رجلا قال له صلى الله عليه وسلم: يا محمد أيا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا. فقال عليه الصلاة والسلام: (يا أيها الناس عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم الشيطان؛ أنا محمد بن عبد الله أنا عبد الله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله.)[36]

وبهذا المعنى فإن التواضع خلق خصب وثري؛ فهو معني بصناعة مفاهيم وممارسات الندية وبمحاربة الممارسات الاستعلائية بين بني البشر؛ وهو يعبر عن نضج في الذات الإنسانية واستيعابها لمنزلتها ومنازل الآخرين.

ويظهر من خلال قراءة السنة النبوية، بخصوص موضوع التواضع، أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حرص على أن يمارس التواضع بين أهله ونسائه في بيته قبل أن يخرج به إلى الناس في إشارة منه إلى أن التواضع؛ إنما يُصنع في الأسرة ويتربى عليه الفرد داخلها ليصير التواضع جزء من هويته وأخلاقه. فمع أهله ونسائه؛ يروى أن السيدة عائشة -رضي الله عنها- سُئِلَتْ: ما كان النبي يصنع في أهله؟ فقالت: كان في مهنة أهله يساعدهم، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة. وكان يحلب الشاة، ويخيط النعل، ويُرَقِّع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويشتري الشيء من السوق بنفسه ويحمله بيديه.[37] ومع أصحابه ومع الناس خارج البيت

المنارة للاستشارات
ww

والأهل؛ كان يبدأ من يقابله بالسلام ويصافحه، ولا يفرق في ذلك بين صغير وكبير أو أسود وأبيض وأحمر أو حر وعبد، وكان صلى الله عليه وسلم لا يتميز على أصحابه، بل يشاركهم العمل ما قل منه وما كثر.[38]

وتشهد الكثير من الروايات على ذلك؛ ففي مسند الإمام أحمد ما جاء عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال في خطبة له: "إنا والله قد صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير."[39]

وفي صحيح مسلم أنه جاءت إليه امرأة كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ»، فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا.[40]

وفي سنن النسائي عن عبد اللَّهِ بن أَبِي أَوْفَى في نعته: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ الذِّكْرَ، وَيُقِلُّ اللَّغْوَ، وَيُطِيلُ الصَّلَاةَ، وَيُقَصِّرُ الْخُطْبَةَ، وَلَا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ فَيَقْضِيَ لَهُ الْحَاجَةَ.[41] وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه مر على صبيان؛ فسلم عليهم. وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله.[42]

وأما مع المخالفين فلعل أبرز صورة علقت بأذهان الأتباع والخصوم هي صورة تواضعه مع من بقي على شركه في فتح مكة من قريش؛ حيث دخلها صلى الله عليه وسلم خافضًا رأسه تواضعًا لله رب العالمين، حتى إن رأسه صلى الله عليه وسلم كادت أن تمس ظهر ناقته. ثم عفا صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة وسامحهم وقال لهم: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)[43]

ولذلك فهم الصحابة الدرس فأحالوه واقعا تعايشوا به مع كل الناس؛ حيث يروى أن عمرا رضي الله عنه خرج إلى الشام في جماعة ومعه أبو عبيدة، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له، فنزل وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا! ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك. فقال: "أوَّهْ، ولو يقل ذا

المنارة للاستشارات
ww

غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد، إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله"[44]

من هنا يمكننا أن نعثر على آثار التواضع وعلاقته بسلوك الندية والاحترام. والتي تظهر في صناعة مجتمع سوي معافى من العقد؛ لا ينظر إلى غيره باحتقار ودونية. ومعافى من الأزمات الأخلاقية التي تحول بينه وبين التطاول على الغير. وسويا في تفكيره لا يخلط بين الاعتزاز بالذات والفوقية، بل قادر على رسم حد فاصل بين ممارسة اعتزازه بدينه وحضارته وثقافته وبين الفوقية أو الاستعلاء.

ـ التعاون:

هو نداء إلى الضمير الإنساني لا يصدر إلا ممن امتلأ قلبه خيرا وحبا وتواضعا للإنسانية. والأصل فيه قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات/13]. وبالمقابل يعطي الاستعلاء انطباعا بامتلاك كل شيء وبعدم الحاجة إلى الغير؛ ما يعني أن الفوقية أو الاستعلاء هو، في الواقع، من أهم العوائق التي تحول بين الإنسان وبين التعاون مع الغير.

وقد بيّن الرسول الله صلى الله عليه وسلم دور التعاون في التقارب والتواصل بين الناس؛ ويظهر ذلك من خلال الأحلاف التي كان يعقدها مع اليهود والتي كانت تهدف، بالدرجة الأولى، إلى الحفاظ على الجوار والتعاون على الفضيلة؛ لأن ذلك هو من قبيل البر والتقوى والعمل الصالح الذي تستفيد منه كل الأطراف. وحينما منعته قريش من دخول مكة حاجا قال: " والذي نفسي بيده لو سألوني خطة يعظمون بها حرمات الله لأعطيتهم إياها."[45] وهو يريد إسكات صوت الحرب والتعاون مع كل الأطراف، ولو كانوا مشركين من أجل منع إراقة الدماء وإزهاق الأرواح. كما ثمن حلف الفضول الذي عقدته قريش وقبائل أخرى قبل مجيئ الإسلام؛ فقال: (لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت.)[46]

ـ التسامح:

هو مبدأ وخلق إنساني، وهو في حقيقته تعبير عن تواضع وعن ثقافة احترام يكتسبها الفرد، وسلوك للتعامل الندي واللافوقي مع الناس. وهو في الإسلام من أهم الأخلاق التي حث

المنارة للاستشارات
ww

عليها لأنه أحد أهم تعبيرات الممارسة الندية التي يظهر فيها احترام المخالف وعدم تهميشه واحتقاره أو التقليل من إنسانيته.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضرب المثل في هذا الخلق. وفي سنته أدلة وشواهد كثيرة منها: عفوه بعد الفتح (من دخل ...فهو آمن) (ما تقولون أني فاعل بكم...)[47] وكذا تسامحه مع قريش في صلح الحديبية بالرغم مما كان فيه من شروط مجحفة. وهو ما يدل على أنه كان يتغيأ نظرة إنسانية لبناء مجتمع إنساني تحقن فيه الدماء وتنشر فيه المحبة.

ـ الوفاء بالعهود:

والأصل فيه قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [النحل/91-92]. وهو خلق إسلامي وقيمة إنسانية، يراد به التزام الشخص، أخلاقيا، بما اتفق عليه مع الآخرين والمضي في تنفيذه في جميع الظروف وفي كل الأحوال وعدم نكثه أو نقضه، وله صور ومظاهر كثيرة. وهو نقيض الغدر.

ومن ثمة كان الوفاء بالعهود خلق يمنح ويدعم الشعور بالأمان والثقة بين الأفراد، ويؤكد أواصر التعاون ويمهد للتواصل والشراكة الإنسانية والعيش المشترك. ولنذكر أن نقض العهود من قبل اليهود كان ولا يزال من أبرز النقاط والأسباب التي تحول بين المسلمين وبين بناء جسور حقيقية للتعايش والسلام معهم. قال تعالى: ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون. أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون**﴾ [البقرة/ 99-100]. ولهذا السبب نفسه كان التركيز على ضرورة الوفاء بالعهود والتحذير من الغدر؛ فقال عليه الصلاة والسلام: (لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به.)[48] من أجل طمأنة الجميع وبناء مجتمع إنساني ينعم فيه الإنسان بالأمن والسلام.

وأدلة الوفاء بالعهود في سيرته صلى الله عليه وسلم لا تنتهي بتوجيهاته ووصاياه، ولا عند المواقف والأحداث التي كان يفي فيها بما التزم به؛ فقد شهد له أعداؤه بأنه يفي بالعهود

المنارة للاستشارات
ww

ولا يغدر، فحين لقي هرقل أبا سفيان، وكان أبو سفيان على عداوته لمحمد صلى الله عليه وسلم سأل هرقل أبا سفيان عن محمد صلى الله عليه وسلم عدداً من الأسئلة، كان مما سأله فيه قوله: فهل يغدر؟ قال لا.[49]

ـ العدالة:

هي مفهوم إنساني هدفه إقامة وتحقيق توازن بين جميع الناس في الحقوق والواجبات. ويعد الإسلام من أكثر الشرائع التي ركزت على ضرورة العدل من أجل استمرار حياة آمنة. فإذا كان غرض الرسالة الإسلامية هو تحقيق التعاون والتعارف بين جميع البشر؛ فإن ذلك لا يتحقق بوجود نقيض العدل وهو الظلم. ومن ثمة كان من آثار العدل تحقيق المساواة بين جميع المكونات البشرية بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو اللون، وتحقيق الأمن والأمان ونشر المحبة والأُلفة والشعور بالإنصاف والرضا. وتراجع رافعات الإرهاب ومسوغاته كالأحقاد وسائر أشكال الكراهية والحسد وإحلال صفات الاحترام والود محلها.

وهكذا تبرز لنا العلاقة بين خلق وقيمة العدالة وبين البناء الإنساني الذي باشره النبي صلى الله عليه وسلم في تجربته في إقامة المجتمع الإسلامي الأول؛ حيث لم تكن العدالة شعارات بقدر ما كانت تطبيقات وممارسات يومية يعيشها الناس في حياتهم.

ولعل أبرز مثال على عدالة النبي صلى الله عليه وسلم هو ما ورد عن السيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: "أنَّ قريشًا أهمَّهم شأن المرأة التي سَرقت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلِّم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلوَّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟!». فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال «أما بعد: فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني -والذي نفسي بيده- لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها." [50] ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقُطعت يدها.

المنارة للاستشارات

كما يظهر عدله عليه الصلاة والسلام مع المخالفين؛ فقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله: " مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ». قَالَ الأَشْعَثُ بن قيس: فِيَّ وَاللهِ كَانَ ذَلِكَ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟ قُلْتُ: لا. فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: " احْلِف. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذًا يَحْلِفَ وَيَذْهَبَ بِمَالِي. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾ [آل عمران/ 77] إِلَى آخِرِ الآيَة.[51]

ومنها ما روى عن سهل بن أبي حَثْمَةَ رضي الله عنه أَنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ انْطَلَقُوا إِلَى خيبر، فَتَفَرَّقُوا فِيهَا، وَوَجَدُوا أَحَدَهُمْ قَتِيلاً، وَقَالُوا لِلَّذِي وُجِدَ فِيهِمْ: قَدْ قَتَلْتُمْ صَاحِبَنَا. قَالُوا: مَا قَتَلْنَا وَلا عَلِمْنَا قَاتِلاً. فَانْطَلَقُوا إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، انْطَلَقْنَا إِلَى خَيْبَرَ فَوَجَدْنَا أَحَدَنَا قَتِيلاً. فَقَالَ: «الْكُبْرَ الْكُبْرَ» فَقَالَ لَهُمْ: «تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ؟» قَالُوا: مَا لَنَا بَيِّنَةٌ!! قَالَ: «فَيَحْلِفُونَ». قَالُوا: لا نَرْضَى بِأَيْمَانِ الْيَهُودِ. فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُبْطِلَ دَمَهُ، فَوَدَاهُ مِائَةً مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ[52]. قال النووي: «إنما وداه رسول الله؛ قطعًا للنزاع، وإصلاحًا لذات البين»[53]

إن ما سبق عرضه وبيانه يُظهر أن بناء مجتمع إنساني هو أمر مرتبط بالأخلاق، وهو مرتبط بالتطبيق العملي والسلوكي لها بدرجة كبيرة؛ فالعالم اليوم لا يحتاج إلى شعارات بقدر ما هو في حاجة إلى تطبيقات يلمسها ويعيشها الإنسان في الواقع.

وقد تجسدت تلك الأخلاق كلها في سنة النبي صلى الله عليه وسلم وتطبيقاته؛ فهو من جمعت فيه أخلاق الكون، وشهد له الله عزّ وجلّ بذلك فقال: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ [القلم/ 04]. ولذلك وجدنا الرسالة التي حملها عليه الصلاة والسلام؛ معنية أولا وأخيرا ببناء أخلاقي تكون وظيفته ومهمته إقامة مجتمع إنساني تنحصر فيه الفوقية والاستعلاء، وتسود فيه المساواة والاحترام عبر توظيف تلك الأخلاق وترسيخها.

ومن ناحية أخرى يظهر لنا حجم خسارة العالم والإنسانية من وراء انحطاط المسلمين، وتراجع دورهم الحضاري. وهو ما حدا بالعقلاء في الغرب، اليوم، إلى محاولة استدراك

المنارة للاستشارات
ww

الوضعية الكارثية التي يمر بها العالم، ومحاولة تغيير مساره عبر البحث في استثمار المعطى الإسلامي؛ حيث يرى صاحب كتاب "العنف والحضارة الغربية: الإسلام كبداية جديدة للتاريخ" أن الإسلام يشكل فرصة لإسعاف الحضارة الغربية وتصحيح مسارها.[54] ففي هذا الكتاب يبرز الغرب الذي يمارس عنفا ممنهجا على الإنسان؛ في كل مكان انطلاقا من أسس وأصول فلسفية مادية تمتد إلى اليونان والرومان؛ حيث بات العنف والاستهتار بالقيم الإنسانية مكون أساسي في البنية الحضارية للغرب. ويبرز في مقابله الإسلام رسالة إنسانية؛ "... تجعل أي طغيان يحاول سلب الإنسان إرادته وحريته صراحة أو خداعاً يجد في الإسلام مشكلة وعائقاً أمامه، سواء كان ذلك على مستوى الأفراد أو الدول والحضارات."[55] وهو ما يجعل مسؤولية المسلمين، خاصة منهم النخب الفكرية والعلمائية، تجاه الإرث القيمي والإنساني الثاوي في القرآن الكريم والسنة النبوية كبيرة من أجل إنقاذ الإنسان والعلاقات الإنسانية اليوم.

خاتمة:

إن أهم ما يخلص إليه هذا المقال نجمله في النقاط التالية:

1/ إن الفوقية والاستعلاء الغربي هو جزء من استراتجيته للحفاظ على هويته، وهو سلوك دمر العلاقات الإنسانية بشهادة مفكريه ونخبه.

2/ إن الإنسانية اليوم تبحث عن بديل يسعفها، والسنة النبوية الشريفة تشكل ذلك البديل الذي يمتلك مخزونا قيميا غنيا، وقادرا على تقويض الخطاب والممارسة الاستعلائية للغرب.

3/ إن السنة النبوية الشريفة هي الصوت الذي لا زال يتحدى أنانية الإنسان واستعلائه وفوقيته، وهي تمثل التواصل الحقيقي مع الإنسانية ومع المجتمع الإنساني.

4/ إن مصادر العلاقات الإنسانية السوية كما تظهر في السنة النبوية الشريفة هي: الكرامة والخاتمية والعالمية.

5/ إن القيم الإنسانية التي تحكم العلاقات بين الناس في السنة النبوية ليست شعارات براقة؛ بل هي ممارسات وسلوك اعتمد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم على القدوة.

المنارة للاستشارات
ww

6/ إن المسلمين، باعتبارهم حملة هذه الرسالة، يتحملون مسؤولية كبيرة في تمثل تلك القيم في علاقاتهم فيما بينهم أولا، ثم في نشرها في العالم ثانيا.

قائمة المصادر والمراجع:

❁ القرآن الكريم.

أولا: الكتب

1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، كتاب الخاء، باب: الخاء والتاء وما يثلثهما، ج2
2) ابن منظور، لسان العرب، دط، بيروت، دار صادر، باب: الفاء، ج39
3) ابن هشام، السيرة النبوية، ط3، بيروت، دار الكتاب العربي، 1990، ج4.
4) أبو داود، سنن أبي داود، ط1، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996.
5) الأزهري أسامة السيد محمود، الحق المبين على من تلاعب بالدين، ط2، الإمارات العربية المتحدة، دار الفقيه للنشر والتوزيع، 2015.
6) باقر محمد الصدر، موجز في أصول الدين، دط، بيروت، دار الزهراء، د.ت.
7) البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دط، الرياض، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، د.ت.
8) الرازي فخر الدين، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دط، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004
9) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
10) الطبري أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حققه وخرج أحاديثه،: محمود محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، ج24.
11) الغزالي محمد، حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ط3، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2005
12) القرضاوي يوسف، العبادة في الإسلام، ط24، القاهرة، مكتبة وهبة، 1995
13) كراسنتشي ملازم، العنف والحضارة الغربية: الإسلام كبداية جديدة للتاريخ، ترجمة وتحقيق: زياد عبد الله، ط1، دار الملتقى، دت.
14) مسلم، شرح النووي على مسلم، دط، الأردن، بيت الأفكار الدولية، د.ت.
15) الموسوعة الحديثية، مسند الإمام أحمد، ط1، تحقيق: شعيب أرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1999
16) الموسوعة الميسرة في التعريف بنبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، رابطة العالم الإسلامي.

المنارة للاستشارات
ww

17) النسائي، سنن النسائي، حكم على آثاره وعلق عليه: ناصر الدين الألباني، ط1، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، د.ت.

18) النيسابوري الحاكم، المستدرك على الصحيحين، دط، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

ثانيا: الدوريات:

19) حسين حافظ وهيب، استراتيجية الإدارة الأمريكية الجديدة إزاء الشرق الأوسط، مجلة دراسات دولية، بغداد، مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، ع46، سنة 2010

ثالثا: المواقع الإلكترونية:

20) http: //w.mdar.co/detail982950.htm

21) http: //www.maghress.com/marayapress/2949

22) http: //islamstory.com/detailes.php?module=artical&slug=

23) http: //www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=447808

الهوامش:

1- صوفي بسيس، "الغرب والآخرون: تاريخ سيطرة، نقلا عن: منتصر حمادة، في نقد خطاب الاستعلاء الغربي الذي يعتقد أنه سيد الكون، نشر في مرايا برس، يوم 2010/05/24، وتعطي الباحثة مثالا على نزعة الاستعلاء والتفوق على باقي الشعوب والأمم والثقافات التي ترسخت في الوعي الأوروبي باستخفاف المسؤولين الأوروبيين بمطالب الجزائريين والفيتناميين بضرورة الاعتذار عن مجازر سطيف وسايغون في عام 1945. وترى بأنه يشمل المسؤولين الرسميين بل والأصوات الفكرية أيضا مثل الفيلسوف الفرنسي بول ريكور.
http://www.maghress.com/marayapress/2949

2- المرجع نفسه

3- ابن منظور، لسان العرب، دط، بيروت، دار صادر، باب: الفاء، ج39، ص3488

4- هو **وليام جراهام سمنر** عالم أمريكي؛ ولد في 1840 وتوفي في 1910 وهو من أهم علماء الاجتماع الأمريكيين، ترأس جمعية علم الاجتماع الأمريكية بعد (ليستر وارد) أول رئيس لها .أشهر مؤلفاته بلا شك كتاب العادات الشعبية Folkwayes الصادر عام 1906.
http://www.mdar.co/detail982950.html

5- خالد امزال، الخطاب الإشهاري الغربي واستراتيجية الاستعلاء، الحوار المتمدن، ع 4674، تاريخ الإدخال: 2014 /12/27
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=447808

6- Pierre-André Taguieff: Dictionnaire historique et critique du racisme, PUF,2013

المنارة للاستشارات
ww

نقلا عن: المرجع نفسه.

7- المرجع نفسه

8- حسين حافظ وهيب، استراتيجية الإدارة الأمريكية الجديدة إزاء الشرق الأوسط، مجلة دراسات دولية، بغداد، مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، ع46، سنة 2010، ص50.

9- لا بد من الإشارة إلى أن الحياة الجاهلية لم تكن خالية من بعض المكارم الأخلاقية التي أبقى عليها الإسلام، ولم ينكرها بل ثمنها وزكاها بحيث صارت جزءا من المنظومة الأخلاقية الإسلامية مثل الشجاعة والكرم...

10- محمد الغزالي، حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ط3، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص14.

11- المرجع نفسه، ص14

12- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دط، الرياض، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، دت، كتاب: الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، ص29، رقم الحديث: 30.

13- محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة، ط1، الرياض، مكتبة المعارف، 1992، المجلد الثاني، ص 325، رقم الحديث: 926

14- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ص1362، رقم الحديث: 7142

15- سبق تخريجه

16- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الحج، باب: الخطبة في أيام منى، ص331.

17- شرح النووي على مسلم، دط، الأردن، بيت الأفكار الدولية، دت، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، ص1538، رقم الحديث: 2564.

18- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دط، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004، ص165.

19- سنن أبي داود، ط1، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996، كتاب: الأدب، باب: في العصبية، ج3، ص 337، رقم الحديث: 5121.

20- المصدر نفسه، رقم الحديث 5119

21- أسامة السيد محمود الأزهري، الحق المبين على من تلاعب بالدين، ط2، الإمارات العربية المتحدة، دار الفقيه للنشر والتوزيع، 2015، ص171

22- الموسوعة الحديثية، مسند الإمام أحمد، ط1، تحقيق: شعيب أرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1997، ج28، رقم 1745

23- أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حققه وخرج أحاديثه: محمود محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، ج24، ص577.

24- المصدر السابق.

25- المصدر نفسه.

المنارة للاستشارات

26- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب: من قام لجنازة يهودي، ص256، رقم الحديث 1311

27- الموسوعة الحديثية، مسند الإمام أحمد، ج41، ص401، رقم الحديث: 24920.

28- سنن النسائي، كتاب النكاح، باب: القسط في الأصدقة، ص353، رقم الحديث: 3349.

29- أنظر: فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج، ص81

30- المصدر نفسه.

31- أنظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، كتاب الخاء، باب: الخاء والتاء وما يثلثهما، ج2، ص245

32- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دت، ج4، كتاب: الفضائل، ص1791، رقم 2286.

33- محمد باقر الصدر، موجز في أصول الدين، بيروت، دار الزهراء، ص98.

34- يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، ط24، القاهرة، مكتبة وهبة، 1995، ص31

35- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الحج، باب: الخطبة في أيام منى، ص331.

36- الموسوعة الحديثية، مسند الإمام أحمد، ج21، ص216-217، رقم الحديث 13596.

37- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الآذان، باب: من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، ص143.

38- المصدر نفسه، كتاب: الإستئذان، باب: التسليم على الصبيان، ص1203.

39- الموسوعة الحديثية، مسند ابن حنبل، ج1، ص532، رقم الحديث: 504.

40- شرح النووي على مسلم، كتاب الفضائل، باب: رحمة النبي صلى الله عليه وسلم للنساء...، ص1432، رقم الحديث 2326.

41- سنن النسائي، حكم على آثاره وعلق عليه: ناصر الدين الألباني، ط1، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، كتاب: الجمعة، باب: ما يستحب من تقصير الخطبة، ص231، رقم الحديث: 1414.

42- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب: التسليم على الصبيان، ص1203، رقم الحديث: 6247.

43- ابن هشام، السيرة النبوية، ط3، بيروت، دار الكتاب العربي، 1990، ج4، ص54-55.

44- الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، دط، بيروت، دار المعرفة، 1998، كتاب: الإيمان، ج1، ص237.

45- سنن البيهقي، دار المعرفة، كتاب الحج، باب: من أحصر بعدو وهو محرم، رقم الحديث: 9854

46- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح البخاري، رقم الحديث: 553

47- ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص54-55

المنارة للاستشارات

48- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الجزية والموادعة، باب: إثم الغادر للبر والفاجر، ص612، رقم الحديث: 3188.

49- الموسوعة الميسرة في التعريف بنبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، رابطة العالم الإسلامي، ص182.

50- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، ص669-670، رقم الحديث: 3475.

51- راغب سرجاني، من صور عدل الرسول مع غير المسلمين...الحكم بالبينة، تاريخ الإدخال: 2011/05/22. http://islamstory.com/detailes.php?module=artical&slug=

52- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الديات، باب: القسامة، ص 1315، رقم الحديث: 6898.

53- شرح النووي على مسلم، كتاب: القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: القسامة، ص1066.

54- أنظر: ملازم كراسنتشي، العنف والحضارة الغربية: الإسلام كبداية جديدة للتاريخ، ترجمة وتحقيق: زياد عبد الله، ط1، دار الملتقى، دت.

55- عبد الرحمن الحللي، مقدمة المرجع نفسه.

المنارة للاستشارات